مشكلات الفلسفة :

فكرة الله

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

« ليس كمثله شيء »
قرآن مجيد

كتب الكثيرون فى هذا الموضوع ، وتناولوه من نواحيه المتعددة بحيث لم تبق لنا بقية نحكيها ولا فضلة نذكرها . وإذا كنت أمسك بالقلم الآن لأخط هذه الكلمات فليس ذلك عن محمد لهؤلاء الذين تعرضوا لفكرة الله قبل الآن ، بالبحث والدرس ، وإنما أفعل هذا عن إيمان بأنى سوف أنظر إلى الموضوع نظرة عكسية ، وأنى سأنصرف إلى جانب آخر غير الذى اعتنوا به ، وبذلوا عنايتهم من أجله . وأحب أن أرفع الخوف عن القارئ من إثارة هذا الموضوع مرة أخرى ، وأود أن أزيل عن نفسه كل حرج أو إشفاق من مواجهة مسألة الألوهية مواجهة صريحة فأنبئه مسرعا بأنى سأبحث الآن مشكلة الإنسان ذاته . وستجد نفسك قادراً — بعد توضيح بسيط — على أن ترفع هذا العنوان لتضع بدلا منه عنواناً آخر يتصل بالإنسان ومشاعره فوق الأرض وبإحساساته فى الحياة . إذ أننى أو من تماما بأن فكرة الله ، كما خلصها إلينا تاريخ الفلسفة ، لا تصور الله ولا تقرّب مفهومه من أذهاننا ، وإنما تعطينا فكرة صحيحة عن الإنسان نفسه من حيث مطامعه وشهواته وخواطره وآرائه ومخاوفه وملاذه .

فكرة الله عند الفلاسفة والمفكرين هى كتاب حافل بأحاسيس البشر وتاريخ ثابت لانفعالات الناس ومجلد مشحون بالعواطف والمشاعر عند ما تطورت على مر العصور . والحقيقة الإنسانية تتكشف ، أكثر ماتتكشف ، من مراجعة هذا السجل الحافل ومن تأمل هذه الخطرات الوافرة . فليس يفيدك تأمل الأفعال المادية التى تأتيها الجماعات أو النظر فى أمور معاشهم والخالطة لهم فى الحياة العامة بقدر مايفيدك التفكير فى هذه الصور التى يعرضها عليك المفكرون عند تدبرهم لصفات الله وتحقيقهم لمشكلة وجوده .

وقديما تنبه إكناتون لهذه الحقيقة على نحو بسيط عند ما قال إن الإنسان يصور نفسه فى آلهته ، وإن هذه الأرباب من صنع الناس وابتكارهم . ولم يكن أمام إكناتون — الفيلسوف اليونانى — عندئذ غير هذه الآلهة التى صوّرها الشعراء السابقون على عصره كأمثلة يقدمها لنا تدليلا على هذه الحقيقة . أما نحن فنستطيع أن نجد كثيراً من البراهين ، على ما نذهب إليه ، من آراء الفلاسفة واعتقاداتهم فى الله منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .

فإذا ما أخذنا إله أرسطو — على سبيل المثال — وجدنا أنفسنا بإزاء كائن أبدى يوصف بأنه جوهر وأنه فعل محض وأنه يحرك ولا يتحرك . وهذه الصفات هى الوجه الآخر لما نلاحظه فى حياتنا الأرضية من سمات الأشياء وخصائصها . فأبدية الله إنما تنشأ عن رغبتنا نحن البشر فى تصور موضوع ، ونتيجة لأطماعنا التى لاحد لها فى معاش يستمر بنا إلى مالا نهاية . إذ أننا نحس فى قرارة أنفسنا بأننا عاجزون أمام مظاهر الطبيعة وعوامل الفناء التى تعمل بكل قوتها على إنهاء الحياة المتمثلة فى الأفراد ، وعلى إبطال مانريد وأننا نستمتع به من مناهم الوجود ولابد — والأمر كذلك — من تصور موضوعية أخرى غير إنسانية توصف بهذا الوصف الذى حرمتنا إياه الحياة وتتعلق بها تلك الكيفيات التى نحلم بتطبيقها على شئوننا الخاصة . فالوجود الأبدى الخالد هو الوجه الآخر لهذه الحياة التى نستشعر بأنها قد وُجدت منذ زمن قريب ولا نعرف مبداها على وجه ثابت ، وهو الوضع المقابل لهذه المظاهر الكثيرة والأعراض الزائلة والحركة الدائبة .

ولا نستطيع أن نفسر صفات الله عند أرسطو إلا على ضوء هذه الحقيقة التى نعلنها إعلاناً صريحاً ونؤكدها تأكيدا قاطعا هنا . فإلهه — كما نعلم — عبارة عن فكر خالص يتأمل ذاته ولا يمكن أن يكون هناك شيء آخر سوى ذاته كموضوع لتأمله مادام شرف التفكير متوقفا على شرف المادة ، وما دام من الصعب أن نُقر رفعة العمليات العقلية من غير الوثوق برفعة الأشياء التى تكون محل اهتمامه . بل إن قدته القصوى إنما تكمن فى هذه الحالة التى يستطيع بها أن يدور حول نفسه وأن يكون هو ذاته لكانه موضوعا لايفرغ من تأمله ولايني عن التفكير فيه . وهو لهذا السبب مشغول عن الحياة ، لا عما يجرى فوق الأرض ، مهمل لأحداث الكون .

فهذا الإله ، إن صح أنه إله ، وليد اختراع مبتكر ولا يمكن أن يصدر عن تصور آخر غير تصور الإنسان الذي يكاد بالبحث ويولع بالنظر العقلي الخالص . لقد كانت الحياة بتتابعها ومضايقاتها تثير جانب الخيال — قبل كل شيء — في عقل أرسطو وتدفعه دفعاً إلى افتراض وجود كائن يخلو من هذه الشواغل الوقتية وينصرف عن الحياة العادية إلى العمل الفكري المجرد . أو يمكن أن نقول إن الحياة الفكرية بما كان لها من مقام في نفس الشعب اليوناني القديم استطاعت أن تدفع بأرسطو دفعاً إلى مذهبه الغريب وتصوره الشاذ . ومن ناحية ثالثة نلاحظ أنه من السهل جداً تصور إله على هذا النحو إذ تكرر وقوعنا في الأزمات وتعددت في سبيلنا العقبات دون أن ينقذنا منقذ ويثير أن يعيننا معين ، مهما رجوناه والتجأنا إليه ودعوناه مخلصين . فالإنسان يتصور الإله محباً للخير عادة ويفترض أنه يعمل جاهداً في سبيل السعادة والهناء . ولا شيء غير ذلك . فإذا حصل أن أتجه الإنسان اتجاهاً سليماً ، وأن سعى مسعى كريماً ، ثم ناله من وراء ذلك سوء وأصابه من جرائه نكر ارتد إلى رشده وعاود تفكيره وجعل ينظر مرة أخرى في شأن الإله العلي القدير . وهو في تلك الحالة إما أن ينكر وجود الإله ، وإما أن يؤمن بأنه موجود ولكن لا تربطه صلة بالعالم الأرضي ولا يشغل باله من أمره شيء ولا يحتل في ذهنه أية مكانة . وهذا الموقف الأخير هو الذي ركن إليه ارسطو كما شاهدناه في كلامه عن صفات الإله .

ولو قمنا باستعراض هذه الفكرة — فكرة الإله — لدى الفلاسفة جميعاً لانتهينا إلى النتيجة التي أعلناها من قبل والتي قلنا فيها إن الإنسان قد عكس خيالاته وأسقط أحلامه وأمانيه على النحو الذي اعتقدناه حسب ميولنا الفلسفية واتجاهاتنا الدينية . والإنسان معذور بطبيعة الحال عندما يفعل ذلك ويقدم على عمله بالشكل الذي وصفناه . ويمكن أن نضع سببين معقولين لحدوث هذه الظاهرة في تاريخ الفكر .

أعتقد بأنه لاحيلة للانسان — أولا — بإزاء الصفات التي ينسبها إلى الإله مادام لايملك غير هذه الصفات التي توجد بين يديه وتتوفر لديه . إن الصفات والكيفيات التي يدركها العقل الآدمي معروفة ومتناهية ولا يمكن الخروج عن نطاقها وابتكار سواها مما لا تعرفه الحواس ولا تتصوره العقول . إنا شركت مثلا في عدد ألوان الأشياء وأحجامها وهيئاتها فلن تستمر طويلا بل سرعان ما سوف تحس بأنك قد انتهيت من الحسابات والتقدير . وإذا أردت أن تعمل عقلك في مسألة ما أو شئت أن تخضع لتفكيرك أمراً من الأمور فلن تزيد — إذا اجتمعت بوصفه — حرفا واحدا على هذه الكيفيات والشبات .

أما السبب الثاني في حدوث هذه الظاهرة فأحسبه ناشئاً من طبيعتنا نحن البشر في صبغ كل شيء بميولنا ، وعجزنا عن التخلص من أهوائنا ، وعدم قدرتنا على التفكير تفكيراً بريئاً من دوافعنا الباطنية مستقلا عن شخصياتنا . إن الأشياء في ذواتها لا وجود لها قط في حياة الإنسان ، والمعرفة الموضوعية التي تتعلق بالأشياء الخارجية لم تعرف الحياة يوما من الأيام ، ومهما تحدث العلماء عن علم نقي خال من آثار الإنسان وأهواء البشر فلن يجدي شيء من هذا الادعاء في تخفيف أو محو ماتلقيه الذاتية من ظلال على معامل التجربة ، وسوف تبقى نتائج الطبيعة خاضعة للمزاج والإرادة إلى أقصى درجة .

فهناك حقا لا شك فيه وهو أننا نعتمد على أنفسنا اعتماداً كبيراً في استقائنا للمعلومات من العالم الخارجي وتصورنا للأشياء التي لا تدخل في نطاق التجارب العادية بالنسبة إلى الإنسان . ومن ثم وجب أن نصطبغ كل مادة لتفكيرنا ، وكل موضوع لأعمالنا ، بقوانا الذهنية في التخيل والإدراك وبنوازعنا النفسية في الهوى والجنوح . أو قل أنه ما من شيء من الأشياء يستطيع أن يتقرر في الذهن وأن يتحقق في دائرة معارف الإنسان من غير أن يمر بالنفس التي تعده الإعداد الكافي وتنقحه التنقيح الواجب . ولا تغرنك ادعاءات الرجال الذين يشتغلون بالعلم في هذا الباب لأن أقوالهم لا تصدق ولا تستحق الاحترام إلا من جهة واحدة حينما ننظر إليها على أنها ضرب من الحلم أو التمني البريء .

وكذلك الأمر في مسألة الإله ؛ فنحن حيارى وسط مظاهر الحياة وبين جدران الطبيعة التي تظلنا من كل جانب ، ونبدو أمام أنفسنا كالتائهين الذين يتطلعون إلى السحب القاتمة عسى أن تبرق ، وإلى الآفاق المدلهمة عسى أن تضيء . ومهما تبدت لنا دلائل الإعجاز من حولنا أو تكشفت لأعيننا حقائق الباطن المستور فإننا لا نكاد نتخلص من الحيرة ولا ننتهي من الشك ولا نقف عند حد

من حدود الإرجاف والتخمين . وذلك لرغبتنا في برهان من الواقع المحسوس وميلنا إلى الوقوف على كل ما يمكن أن يكون هنالك سافراً مفضوحاً . ولكن الحقيقة لا تتكشف والباطن لا يبين والقلق لا ينتهي .. فلنفكر إذاً ولنُعمِل عقولنا ولنوجد نحن المشكلة ولنضعها في الصحائف والكتب على النحو الذي نريد .

وهكذا انتهينا إلى تصور الله وتخيله ، وشبهناه وقربناه ، فكانت آراؤنا من قبيل الأمنية ، وكانت أفكارنا ضرباً من الأحلام ، ولا يستطيع واحد من الناس أن يزعم أن الإله الذي قدره هو نفسه الإله المشرف على نظام الكون والمدبر لأمور الناس . ولا يملك واحد من الناس القدرة على إثبات التطابق بين الإله الذي وصفه والإله الموجود وجوداً فعلياً . فالله هو الله ؛ أما آلهتنا التي نصفها فهي من قبيل المحاولات التي يجوز أن تتجه اتجاهاً صحيحاً ، ويجوز في الوقت نفسه ألا يكون لها أي سند من الواقع أو أي تقريب معقول .

فالآلهة التي نتحدث عنها والتي نصف أفعالها إنما هي صدى لحياتنا العملية بما فيها من نقص واضطراب . فالله يشفي المرض لأننا نمرض ، ولو لم يكن المرض من لوازم حياتنا المعيشية لما تصورنا الله قادراً على شفاء الناس من الأمراض . والله هو السبب في المكاسب والخيرات ، وهو الذي يهدي الناس إلى سبيلهم ويطعمهم ويسقيهم . وبعبارة موجزة : يأتي الله كل الأعمال الوظيفية التي لا نعدو أن تكون ضمن المطالب العادية . وكلما فكرنا في الله وصفاته لم نستطع أن نخرج به عن هذا الطوق الضيق وعن هذا النطاق المحصور ، لماذا ؟ لأن الأرض مسرح لها ولأن حياة الناس ملأى بهذه الأشياء التي ترضيهم أحياناً وتسوءهم أكثر الأحيان .

فالله الذي نعترف به ونقر بوجوده ونسلم بسلطانه أسير حياتنا الدنيوية ويمكن وصفه بأنه إله إنساني — إن صح هذا التعبير — مرّ بالعقول قبل أن تؤمن به الصدور ، وامتحنه الخيال قبل أن تسلم به الروح ، واستأثرت به المصلحة قبل أن ينفذ إلى عالم الضمائر . ولذلك نستطيع أن نجد فيه مشكلتنا نحن أنفسنا لا مشكلة الله ، ونستطيع أن نلمس فيه ضعفنا بارزاً وأن نجد عنده آلامنا واضحة وأن نضاف على وجهه صحة الهم البشري .

قال سارتر عندما كتب عن قصة ضياء أغسطس لفولكنير : « تصير القصص الجيدة — من بُعد قليل — شبيهة تماما بالظاهرات الطبيعية . إننا ننسى أن لها مؤلفاً وننظر إليها نظرتنا إلى الأحجار والأشجار لأنها هنالك ، ولأنها موجودة » . ونستطيع أن نقول عن الذين يتحدثون عن صفات الله إن كلامهم يصير بعض الزمن حقيقة راسخة في نفوسنا وننظر إلى أحكامهم على أنها أمور مقطوع بها وننسى غالباً هؤلاء الذين صدرت عنهم وبدرت منهم في ظرف من الظروف . والغريب في هذه المسألة هو أننا نأخذ كلامهم مأخذ الجد ونخضع أنظارهم للبحث والنقد ونجعل منها بعد حين موضوعاً للجدل والنقاش . هذا مع أننا نستطيع من أول الأمر أن نريح أنفسنا بأن نفرق بين أهوائنا وبين الوقائع الصحيحة ، وبين ما نريده نحن وبين ما هو حاصل بالفعل .

فالإنسان لا يملك إلا أن يفكر وأن يقدح ذهنه في مسائل الكون التي تشغل باله وتقلق من راحته وهدوئه . وهذا طبيعي ومقبول منه إذا لم يأت بعد ذلك ليصف لنا أشياء لم يطلع عليها ولم تتكشف له ، وصف المشاهد الخبير . وحتى هذا العمل الوصفي مقبول ومقبول ، على ألا يأتي بعد ذلك إنسان فيتحدث عنها كما لو كان يتحدث عن الحقائق المقررة .

ونعود ثانية لنقول إن الله أرفع شأناً وأسمى مقاما من أن نخضعه لأحكامنا ومن أن يتحدد بأهوائنا ويتوقف شكله على أمورنا المعيشية . وأي وصف نلصقه به وأية كيفية نلحقها بذاته لا تخرج من كونها تخمينا لا يرتفع إلى درجة اليقين ولا يوثق به الوثوق الكامل . أما إذا أخذنا مسألة الصفات على حقيقتها ونظرنا فيها على أنها مشكلتنا نحن البشر فأغلب الظن أننا سنبلغ أمراً على قدر كبير من الأهمية من ناحية التحليل الخاص بالعواطف الإنسانية والتسجيل الدقيق لخواطر الناس والإحساسات التي تعم بني آدم فوق الأرض . وذلك لأننا أقرب إلى أنفسنا عندما نتحدث عن الله منا إلى الله ، وأشد ارتباطا بقلوبنا وأوضاعنا في تلك الآونة منا إلى ملكوت السماء ، وأكثر حباً لمصالحنا وأهوائنا منا لهدى الله ورضوانه .

أيها الإنسان ! ثب لرشدك وعد إلى نفسك وانفض غبار النفاق عن جبينك لتعلم أن الرب أعظم من أن يلحقه وصف ، وأرفع من أن تبلغه كيفية ، وأسمى من أن يلابس المقادير وماجريات الأمور على أرض دنستها بريائك ، ووسمتها بلحم آثامك .

عبد الفتاح الديدي